الباب الثالث عشر

المرأة خطيبة، بليغة، شاعرة

الفصل الأول

النساء والشِّعر

امتنّ الله تعالىٰ علىٰ الإنسان بأنه علَّمه أسلوب التعبير عمَّا يدور في نفسه ، وأشار إلىٰ ذلك في سورة الرحمن :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾

[الرحمن : ١ـ٤] .

وأهم أنواع البيان : الكتابة ، والشِعر ، والخطابة ، والبلاغة ، وقد برز الأجداد العرب في هذه المجالات .

ولذلك قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : الشعر علم العرب وديوانها فتعلموه ، وعليكم بشعر الحجاز .

وقال : إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب .

لكن هذا الأمر لم يكن مقتصراً علىٰ الرجال وحدهم ، بل برز فيه نساءٌ كثيرات في البلاغة والفصاحة والخطابة وفنِّ الرثاء والشِعْر و . . .

وقد كُتب في ذلك الكثير ، وتناقلت المراجع والمصادر كثيراً من هذه التحف النسائية ، ونحن بدورنا سننقل بعضاً منها ، لنستدل علىٰ ما قلناه في البداية من أن النساء شقائق الرجال ، وأنه لا فرق بين الصنفين إلا في أشياء قليلة ـ اعتبرها الله تعالىٰ من الفطرة ووجدت لأمور يعلمها هو

سبحانه وتعالىٰ ـ ولحكمٍ تقتضيها ضرورة التعايش علىٰ سطح هذه الأرض :

* برز في عصر الجاهلية نساءٌ شاعرات ، وكان أكثر اهتمامهن بالرثاء ، فهذه أعرابية يموت ابنها فترثيه شعراً :

أيـا ولـدي قـد زاد قلبـي تلهبـاً ... وقد حرقت مني الشؤون المدامعُ
وقد أضرمت نارُ المصيبة شعلةً ... وقد حميت مني الحشا والأضالعُ
وأسأل عنك الركب هل يخبروننني ... بحالك كيْما تستكنّ المضاجعُ
فلا بك فيهم مخبرٌ عنك صادقٌ ... ولا فيهـمُ مـن قـال إنـك راجـعُ
فيا ولدي مُذ غبتَ كدّرت عيشتي ... فقلبـي مصـدوعٌ وطـرفـي دامـعُ
وفكـري مسقـومٌ وعقلـي ذاهـبٌ ... ودَمعـي مسفـوحٌ وداري بـلاقـعُ

وتلكم الشاعرة المخضرمة تماضر الخنساء (ت ٤٦هـ) توفي أخوها صخر ، فراحت تقول القصائد في رثائه ، من ذلك علىٰ سبيل المثال :

قـذىً بعينـك أم بـالعيـن عُـوّار ... أم أقفرتْ إذ خلتْ من أهلها الدار
كـأن عينـي لـذكـراه إذا خطـرت ... فيضٌ يسيل علىٰ الخدَّين مدرارُ
تبكي (خُناس) علىٰ (صخرٍ) وحقٌّ لها ... إذ رابها الدهر إن الدهر ضرَّارُ
لا بدَّ من ميتةٍ في صرفها عبرٌ ... والدهر في صرفه حولٌ وأطوارُ
يـا صخـر ورّادَ مـاء قـد تـواردهُ ... أهـل المـوارد مـا فـي وِرده عـارُ
وإن صخـراً لتـأتـمُّ الهـداة بـه ... كـأنـه علـمٌ فـي رأسـه نـارُ
لـم تُلفـهِ جـارةٌ يمشـي بطـاحتهـا ... لـريبـة حيـن يُخلـي بيتـه الجـارُ
مثـل الـرديـنيّ لـم تنفـذْ شبيتـه ... كـأنـه تحـت طـيّ البـرْد أسـوارُ
طلق اليدين بفعل الخير معتمدٌ ... ضخم الدسيعة[1] بالخيرات أمَّارُ

(١) أي : مائدته كريمة وكبيرة ، وهذا دليل حبه لضيوف وإكرامهم .

حمـال ألـويـةٍ ، هبّـاط أوديـةٍ شهّـاد أنـديـةٍ للجيـش جـرَّارُ

لكن لما جاء الإسلام هذَّب فن النوح والرثاء ، وأخذ به إلىٰ طريق الصَّواب ، فأصبح يسير تحت مظلة الإسلام ، ومع قانون القرآن ، ومن ذلك ما قالته السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها حين انتقل سيدنا رسول الله ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ :

إنا فقدناك فقدَ الأرض وابلَها[1] وغاب مُذ غبتَ عنا الوحي والكُتُبُ
فليت قبلك كان الموت صادفنا لمّا نُعيتَ وحالت دونكَ الكُتُبُ

ثم تأتي عمته صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها ، فترثيه ﷺ رثاءً تفوح منه المعاني الإسلامية ، وتقول :

ألا يـا رسـول الله كنـت رخـاءنـا وكنـتَ بنـا بـرّاً ولـم تـكُ جـافيـاً
وكـان بنـا بـرّاً رحيمـاً نبيُّنـا ليبك عليك اليوم من كان باكيا
لعمـري مـا أبكـي النبـي لمـوتـه ولكـن لهَـرْجٍ كـان بعـدك آتيـاً
كـأنّ علـىٰ قلبـي لفَقـد محمـدٍ ومن حبّه من بعد ذاك المكاويا
(أفاطم) صلّىٰ الله ربُّ محمدٍ يُبكِّي ، ويدعو جدَّه اليوم نائيا
فـدىً لـرسـول الله أمـي وخـالتـي وعمـي ونفسـي قصـره وعيـاليـا
صبرتَ وبلَّغت الرسالة صادقاً ومتَّ صليب الدين أبلج صافيا[2]
فلـو أن ربَّ العـرش أبقـاكَ بيننـا سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليـك مـن الله السـلامُ تحيـةً وأدخلتَ جناتٍ من العَدْنِ راضياً

ولما توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقفت السيدة عائشة علىٰ قبره وقالت :

---

(١) أي : المطر الشديد .
(٢) أي : قوي الدِّين ، واضحاً مضيئاً منيراً .

نضَّر الله وجهك يا أبتِ ، وشكر لك صالح سَعْيك ، فلقد كان أجلَّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك ، وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعد بحُسْن الصبر عنك حُسْن العِوَض منك ، وأنا أستنجز موعودَ الله تعالىٰ بالصبر فيك ، وأستقضيه بالاستغفار لك ، أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمت بأمر الدين لمَّا وهىٰ شَعبُهُ وتفاقم صَدْعُهُ ورَجَفتْ جوانبُه[1] ، فعليك سلام الله توديعَ غير قاليةٍ ـ كارهة ـ لحياتك ، ولا زاريةٍ[2] علىٰ القضاء فيك .

ولما استشهد سيدنا عمر رضي الله عنه راحت زوجته عاتكة ترثيه وتقول :

عينُ جودي بعبرةٍ ونحيبِ ... ولا تملّي علىٰ الأمين النجيبِ
فجعتني المنونُ بالفارس المُعلم ... يوم الهياج والتثويبِ[3]
عصمة الناس والمعين علىٰ الدهر ... وغيث المحروم والمحروبِ
قل لأهل الضرَّاء والبؤس موتوا ... قد سقته المنون كأس شعوبِ[4]

* * *

(١) أي لما تفرَّق المسلمون ، وارتدَّ منهم من ارتد .
(٢) أي : عائبةٍ .
(٣) المعلم : أي المعروف بين الناس ، والتثويب هو الدعاء .
(٤) للتوسع في ذلك يراجع : زهر الآداب للقيرواني ، ونهاية الأرب للنويريّ ، والشّعر والشعراء في ميزان الشريعة الإسلامية ، للمؤلف .

الفصل الثاني

نساءٌ خطيبات!!

وفي مجال الخطبة والوعظ والفصاحة تبرز نساء كثير ، ولنصغي إلىٰ نماذج من أقوالهن لنرىٰ الحقيقة واضحةً جليةً :

تلكم الزهراء رضي الله عنها تقف في الناس بعد انتقال رسول الله ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ فتقول كلاماً فصيحاً بليغاً ، ومما قالته في ذلك :

الحمد لله علىٰ ما أنعم ، وله الشكر علىٰ ما ألهم ، والثناء بما قدم : من عموم نعم ابتداها وسبوغ آلاء أسداها ، وتمام نعم أولاها ، جلّ عن الإحصاء عددها ، ونأىٰ عن المجازاة أمدها ، وتفاوت عن الإدراك أبدها ، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها .

واستحمد إلىٰ الخلائق بأجزالها ، وثنىٰ بالندب إلىٰ أمثالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له : كلمة جعل الإخلاص تأويلها ، وضمن القلوب موصولها ، وأنار في التفكر معقولها ، الممتنع من الأبصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ، ومن الأوهان كيفيته ، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها ، كوّنها بقدرته ، وذرأها بمشيئته من غير حاجة إلىٰ تكوينها ، ولا فائدة له في تصويرها إلا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً علىٰ طاعته ، وأشهد أن أبي محمداً ﷺ عبده ورسوله ، ابتعثه الله تعالىٰ إتماماً لأمره ، وعزيمة علىٰ إمضاء حكمه ، وإنفاذاً لمقادير حتمه ، فرأىٰ الأمم فرقاً في

أديانها عكفاً علىٰ نيرانها عابدةً لأوثانها ، منكرةً لله مع عرفانها .

فأنار الله بأبي محمد ﷺ ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها ، وجلىٰ عن الأبصار غممها ، أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه ، وحملة دينه ووحيه ، وأمناء الله علىٰ أنفسكم ، وبلغاؤه إلىٰ الأمم ، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق ، الصيام تثبيتاً للإخلاص ، والحج تشييداً للدين ، والعدل تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملّة ، وإمامنا أماناً من الفُرقة ، والجهاد عزاً للإسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق ، والصبر معونة علىٰ استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مصلحة للعامة ، وبرّ الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الأرحام منسأة في العمر ، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازيين تغيراً للبخس .

أيها الناس : اعلموا أني فاطمة وأبي محمد ﷺ ، أقول عَوداً وبِدءاً ، ولا أقول ما أقول غلطاً ، ولا أفعل ما أفعل شططاً :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

. . . وتلكم السيدة حفصة تقف لتقول بعد استشهاد والدها سيدنا عمر رضي الله عنهما :

الحمد لله الذي لا نظير له والفرد الذي لاشريك له ، وأما بعد :

فكل العجب من قوم زيّن الشيطان أفعالهم وارعوىٰ إلىٰ صنيعهم ونصب حبائله لختلهم ، حتىٰ همَّ عدو الله بإحياء البدعة ونبش الفتنة وتجديد الجور بعد دروسه ، وإظهاره بعد دثوره ، وإراقة الدماء وإباحة الحمىٰ وانتهاك محارم الله عز وجل بعد تحصينها ، فأضرىٰ وهاج وتوغر

وثار غضباً ونصرةً لدين الله ، فأخسأ الشيطان ووقم ـ قهر ـ كيده وكفف إرادته وقدع ـ دفع ـ محنته ، وأصغر خدّه لسبقه إلىٰ مشايعة أولىٰ الناس بخلافة رسول الله ﷺ ، الماضي علىٰ سنته ، المقتدي بدينه ، المقتص لأثره ، فلم يزل سراجه زاهراً وضوؤوه لامعاً ونوره ساطعاً له من الأفعال الغرر ، ومن الآراء المصاص[1] ، ومن التقدم في طاعة الله اللباب إلىٰ أن قبضه الله إليه قالياً ـ مبغضاً ـ لما خرج منه ، شانياً ـ معيباً ـ لما ترك من أمره ، شيّعاً لمن كان فيه ، صباً إلىٰ ما صار إليه ، وائلاً إلىٰ ما دُعي إليه ، عاشقاً لما هو فيه ، فلما صار إلىٰ التي وصفتُ وعاين لما ذكرتُ أومأ بها إلىٰ أخيه في المعولة ونظيره في السيرة وشقيقه في الديانة ، ولو كان غير الله أراد لأمالها إلىٰ ابنه ولصيّرها في عقبه ولم يخرجه من ذريته ، فأخذها بحقها وقام فيها بقسطها ، لم يؤده ثقلها ولم يبهظه حفظها مشرداً للكفر عن موطنه ، ونافراً له عن وكره ، ومثيراً له من مجثمه حتىٰ فتح الله عز وجل علىٰ يديه أقطار البلاد ونصر الله بقدمه ، وتكنّفه وهو بالله معتصم ، وعليه متوكل حتىٰ تأكدت عُرىٰ الحق عليكم عقداً ، واضمحلت عُرىٰ الباطل عنكم حلاً ، نورُه في الوجنات ساطع ، وضوؤه في الظلمات لامع ، قالياً للدنيا إذ لا تطلب سواه بعلاً ، ولا تبغي سواه نحلاً ، أخبرها أن التي يخطب أرغد منها عيشاً ، وأغدق منها أرضاً ، وأنعتُ منها جمالاً ، وأتمّ منها بلهنية ـ رخاء ـ وأعذب منها رفهنية ـ رفاهية ـ فبشعت نفسه بذلك لعادتها واقشعرت منها لمخالفتها ، فعركها بالعزم الشديد حتىٰ أجابت بالرأي الجليد حتىٰ انقادت ، فأقام فيها دعائم الإسلام وقواعد السنة الجارية ورواسي الآثار الماضية وأعلام أخبار النبوّة الطاهرة وظل خميصاً ـ ضامراً ـ من بهجتها ، قلياً لأثاثها ، لا يرغب في

---

(١) أي : خالص كل شيء ـ والمقصود ـ أحسن الآراء : [القاموس المحيط : ٨١٤] .

زبرجدها ولا تطمح نفسه إلىٰ جدتها حتىٰ دُعي فأجاب ، ونودي فأطاع ، علىٰ تلك الحال فاحتذىٰ في الناس بأخيه فأخرجها من نسله وصيّرها شورىٰ بين إخوته ، فبأي أفعاله تتعلقون ؟ وبأي مذاهبه تتمسكون ؟

أبطرائقه القويمة في حياته ؟ أم بعدله فيكم عند وفاته ؟ ألهمنا الله وإياكم طاعته . . .

* وفي مجال الرسائل والمكاتبة برزت النساء إلىٰ جانب الرجال ، وعُرفت في هذا المجال أسماء كثيرة ، منهن زوج سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنهما واسمها نائلة بنت الفرافصة ، يروي ابن عبد ربه(ت ٣٢٨هـ) أنها أرسلت إلىٰ معاوية الخليفة الأموي كتاباً مع النعمان بن بشير ـ وذلك بعد استشهاد سيدنا عثمان ـ جاء فيه :

من نائلة بنت الفرافصة إلىٰ معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد : فإني أدعوكم إلىٰ الله الذي أنعم عليكم ، وعلمكم الإسلام ، وهداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الكفر ونصركم علىٰ العدو ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وأنشدكم الله ، وأذكّركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم ، فإنه قال ـ سبحانه ـ :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۚ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الحجرات : ٩] .

وإن أمير المؤمنين بُغي عليه ، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولادة ، ثم أُتي إليه ما أُتي لحقَّ علىٰ كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره فكيف وقد علمتم قدمه في الإسلام ، وحُسن بلائه ، وأنه أجاب داعي الله وصدّق كتابه واتّبع رسوله ، والله أعلم به إذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة ، وإني أقص عليكم خبره ، إني شاهدةٌ أمره كله ، إن أهل المدينة حصروه في داره ، ويحرسونه ليلهم ونهارهم قياماً علىٰ أبوابه

بالسلاح ، يمنعونه كل شيء قدروا عليه حتىٰ منعوا الماء ، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة . . . ـ إلىٰ أن قالت ـ : ثم جاء ثلاثة نفر من أصحابه فقالوا : إن في المسجد ناساً يريدون أن يأخذوا أمر الناس بالعدل ، فاخرج إلىٰ المسجد يأتوك ، فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحةُ القوم مظلَّةٌ عليه من كل ناحية ، فقال : ما أرىٰ اليوم أحداً يعدل! فدخل الدار ، وكان معه نفر ليس علىٰ عامتهم سلاح فلبس درعه وقال لأصحابه : لولا أنتم ما لبستُ اليوم درعي ، فوثب عليه القوم فكلمهم ابن الزبير ، وأخذ عليهم ميثاقاً في صحيفته وبعث بها إلىٰ عثمان : عليكم عهد الله وميثاقه أن لا تقربوه بسوءٍ حتىٰ تكلموه وتخرجوا ، فوضع السلاح ، ولم يكن إلا وضعه ودخل عليه القوم يقدُمهم محمد بن أبي بكر ، فأخذوا بلحيته ودعوه باللقب ، فقال : أنا عبد الله وخليفته عثمان ، فضربوه علىٰ رأسه ثلاث ضربات ، وطعنوه في صدره ثلاث طعنات ، وضربوه علىٰ مقدم الجبين فوق الأنف ضربة أسرعت في العظم ، فسقطت عليه وقد أثخنوه وبه حياة ، وهم يريدون أن يقطعوا رأسه فذهبوا به ، فأتتني ابنة شيبة بن ربيعة فألقت بنفسها معي عليه ، فوطئنا وطأً شديداً ، وعُرِّينا من حلينا ، وحرمة أمير المؤمنين أعظم ، فقتلوا أمير المؤمنين في بيته مقهوراً علىٰ فراشه ، وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه ، وإنه والله إن كان أَثِمَ من قتله ما سَلِمَ مَن خذله ، فانظروا أين أنتم من الله ، وأنا أشتكي كل ما مسَّنا إلىٰ الله عز وجل ، وأستصرخ بصالحي عباده ، فرحم الله عثمان ولعن قتلته وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمذلة ، وشفىٰ منهم الصدور . . .[1] .

---

(١) للتوسع والتمحيص في قصة استشهاد سيدنا عثمان يراجع : البداية والنهاية للحافظ ابن كثير : ١٩٢/٧ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٤٥ ، وتاريخ الطبري : =

* وترتقي المرأة المسلمة ـ في غالبية العهود ـ وتبرز مواهبها الأدبية ، فلا تكتفي بإلقاء الخطب والمواعظ ، ولا بإنشاد الشعر و . . إنما كانت تجلس حكماً بين فحول الشعراء ! !

هذه سكينة بنت الحسين يقول عنها ابن عبد ربه في العقد الفريد[1] :

. . . وبفضل مقامها الرفيع فقد كانت تجالس الأجلّة من قريش ويجتمع إليها الشعراء والأدباء والمغنون فيحتكمون إليها فيما أنتجته قرائحهم ، فتبيِّن لهم الغثَّ من السمين .

وتناقش المخطىء مناقشة علمية ، فيقنع بخطئه ويقرُّ لها بالفضل وقوة الحجة وسعة الإطلاع ، وذات يوم اجتمع في ضيافتها : جرير والفرزدق وجميل والنصيب ، فمكثوا أياماً ثم أذِنَتْ لهم فدخلوا ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم ، فأخرجت إليهم جاريةً لها وضيئة ، وقد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت :

أيكم (الفرزدق) ؟ فقال : ها أنا ذا ، قالت : أنت القائل :

هما دلَّياني من ثمانين قامة ... كما انقضَّ باز أقتمُ الريش[2] كاسرُه

فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا ... أحيٌّ يرجّىٰ أم قتيلٌ نحاذره

فقلت : ارفعا الأسباب لا يشعروا بنا ... وولَّيت في أعجاز ليلٍ أدابره

أحاذر بوَّابين قد وكلا بنا ... أو أحمر من ساج تئطُّ[3] مسامره

فأصبحت في القوم القعود وأصبحت ... مغلقة دوني عليها دساكره

يرىٰ أنها أضحت حصاناً وقد جرىٰ ... لنا برقاها ما الذي أنا شاكره

= ٤/ ٣٣٣ ، وعلي بن أبي طالب مستشار أمين للخلفاء الراشدين ، للمؤلف .

(١) للتوسع عن سيرة حياتها يراجع : أعلام النساء لعمر رضا كحالة : ٢/ ٢٠٧ .

(٢) أي : أسود الريش .

(٣) أي : تحنُّ .

قال : نعم أنا قلته . ، قالت : ما دعاك إلىٰ إفشاء سرِّك وسرِّها ؟ أفلا سترتَ علىٰ نفسك وعليها ؟ خذ هذه الألف وانصرف!!

قال : بل أتركها واللحاق بأهلي أجمل ، ثم دخلت فقالت : أيُّكم جرير ؟ قال : ها أنذا ، قالت : أنت القائل :

طرقتك صادئة القلوب وليس ذا ... حين الزيارة فارجعي بسلامِ
تجري السِّواك علىٰ أغرّ كأنه ... بَرَدٌ تحدَّر من متون غمامِ
لو كان عهدك كالذي حدثتنا ... لوصلت ذاك فكان غير رِمامِ
إني أواصل من أدرت وصاله ... بحبالٍ لا صلفٍ ولا لوامِ

قال جرير : أنا قلته ، قالت : أفلا أخذت بيدها ورحبت بها وقلت : فادخلي بسلام ؟ أنت رجل ضعيف ، خذ هذين الألفين والحق بأهلك!!

* * *

الفصل الثالث

دور المرأة المسلمة في الحركة الأدبية

وهكذا كان دور المرأة في العصر الإسلامي الأول ، وفي عهد الأمويين ، والعباسيين والمملوكيين ، وفي الأندلس . . . ولنأخذ مثالاً علىٰ ذلك ، يقول الدكتور عمر موسىٰ باشا :

إن ما وصلنا من نصوص شعرية ، يدل علىٰ أن المرأة الأندلسية ، في عصر بني أمية ، قد نظمت الشعر في أغراض شتىٰ ، من مدح ، وغزل ، وحنين ، وشكوىٰ ، من ذلك قول الشاعرة (مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري) وهي ترد علىٰ قصيدة بعث بها إليها ، أحد الأفراد ، وأرفقها بمالٍ وحلي :

من ذا يجاريك في قول وفي عمل ... وقد بدرت إلىٰ فضل ولم تسل
ما لي بشكر الذي نظمت في عنقي ... من اللآلي وما أوليت من قبل
حليتني بحلىٰ أصبحت زاهية ... بها علىٰ كل أنثىٰ من حلىٰ عطل
لله أخلاقك الغرّ التي سقيت ... ماء الفرات فرقت رقة الغزل
أشبهت في الشعر من غارت بدائعه ... وأنجدت وغدت من أحسن المثل
من كان والده العضب المهند لم ... يلد من النسل غير البيض والأسل[1]

وأما الشاعرة (عائشة بنت أحمد القرطبية) ، فلها قصيدة رائعة ،

---

(١) الأسل : ج أسلة ، وهي الرماح .

ارتجلتها أمام المظفر ابن المنصور بن أبي عامر ، وبين يديه ولده يلاعبه ، تقول فيها :

أراك الله فيه ما تريد ... ولا برحت معاليه تزيد
فقد دلّت مخايلة علىٰ ما ... تؤمله وطالعه السعيد
تشوّقت الجياد له وهزّ الـ ... ـحسام هوىٰ وأشرقت البنود
فسوف تراه بدراً في سماء ... من العليا ضراغمه أسود
فأنتم آل عامر خير آلٍ ... زكا الأبناء منكم والجدود
وليدكم لدىٰ رأىٰ كشيخ ... وشيخكم لدىٰ حرب وليد[1]

* **وأما عائشة الباعونية (ت ٩٢٢ هـ) :**

هي الشيخة الأريبة العالمة العاملة ، أم عبد الوهاب ، الصوفية الدمشقية بنت الباعوني .

ولدت في دمشق ، ورحلت إلىٰ القاهرة في طلب العلم ، ونالت هناك علماً وافراً ، وأجيزت بالافتاء والتدريس ، ثم عادت إلىٰ دمشق لتؤدي خدمة جليلة في مجال العلوم و . . .

لها ديوان مخطوط وهو موجود في دار الكتب الظاهرية ، ويتألف من ست قصائد نبوية ، ومن ذلك قولها في تخميس بردة المديح للبوصيري :

كتمت عشقي فأضحىٰ غير مكتتم
بمدمعٍ عند (ميٍّ) اللون مُنسجم
وقال صحبي ووجدي صار كالعلم :
أَمِنْ تَذكّر جيرانٍ بذي سلمِ ... مزجتُ دمعاً جرىٰ من مقلةٍ بدم

---

(١) نفح الطيب لأحمد المقريّ : ٤/ ٢٩٠ ، وفي هذا الكتاب نماذج كثيرة لشاعرات أندلسيات ، وكذلك في كتاب جذوة المقتبس للحميدي .

إضافةً إلىٰ الديوان فلها كتب في التصوّف والشعر والمعارف الذوقية منها :

الفتح الحقي من منح المتلقي ، والملامح الشريفة في الآثار اللطيفة ، ودر الغائص في بحر المعجزات والخصائص ، والإشارات الخفية في المنازل العلية ، وفيض الفضل ، والمورد الأهنأ في المولد الأسنىٰ .

ولنستمع إليها وهي تصف مدينة دمشق :

نـزّه الطـرف فـي دمشـق ففيهـا ... كلمـا تشتهـي ومـا تختـار
هـي فـي الأرض جنـة فتـأمـل ... كيـف تجـري مـن تحتهـا الأنهـار
كي سما في ربوعها كل قصر ... أشـرقـت مـن وجـوهها الأقمـار
وتنـاغيـك بينهـا صـادحـات ... خـرسـت عنـد نطقهـا الأوتـاد
كلهـا روضـة ومـاء زلال ... وقصـور مشيـدة وديـار

والمعروف عن الشاعرة أنها كانت عابدة عالمة متنسّكة ، أخذت من العارفين المتصوفة مثل شيخها إسماعيل الحواري ، لذلك كانت عواطفها صادقة ومشاعرها تمثل قمة الرقة ، وتحمل معانٍ صوفية رائعة .

ولنأخذ مثالاً ذلك :

حبيبـي أنـت مـن قلبـي قـريـب ... وعـن سـري جمـالـك لا يغيـب
خلعتَ الحسن في خلع التحلي ... فشـاهـدت الجمـال ولا رقيـب
وأبـديـتَ الـوصـال فـلا صـدود ... ولا وهـم ولا شـيء يـريـبُ
وطُفتَ عليّ في حان التصابي ... بكـأس عيـشُ شـاربـه يطيـب
بـراح نلـتُ أقصـىٰ الـري منـه ... وفـي زي تـراءت لـي الغيـوب
وزالت باستواء شمسي طلالي ... تجـلُّ ليـس يعقبـه غـروب
وصـرت إلـىٰ مقـام ليـس فيـه ... سـواك حبيـب قلبـي لـي نصيـب
تنـادمنـي وتسقينـي مـدامتـي ... وتحضـرنـي لـديـك فـلا أغيـب

وتـذكـرنـي وتشهـدنـي جمـالاً ولا سقم وسؤل وأنت لي الحبيب

وبعد ذلك كله لا بدّ من القول : إن هذه الشاعرة الكبيرة كانت ذات منزلة سامية في الأوساط الاجتماعية والصوفية والأدبية ، إذ كانت تشترك في المجالس الأدبية ، والحلقات العلمية ، والمطارحات الشعرية .

ولقد أسهمت بدورها الفعّال في تطور الشعر العربي وتجديد بعض أغراضه في هذا الالتزام الشكلي والمضموني ، كما ظهر ذلك في فن المدائح النبوية ، إذ أصبحت بديعياتها وقصائدها النبوية تتردد في الحلقات الصوفية والمجالس الأدبية[1] .

* وفي الكتب الكبيرة نجد أسماء النساء تبرز في عالم الأدب والشعر و . . .

فمثلاً في كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحموي ، نجد أسماء كثيرة لنساء أديبات أمثال : فاطمة بنت الأقرع ، وحميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري ، و . . .

والكُتّاب الكبار اهتموا بهذا الموضوع ، حتىٰ أن واحداً كالإمام السيوطي يفرد كتاباً لشاعرات اشتهرن في عهده ومن قبله فبلغ عددهن (٤١) امرأة ، منهن مثلاً : أم الكرام بنت المعتصم بالله ، وأم العلاء الحجارية ، وأم السعد القرطبية ، وبدر التمام ، وبوران ، وتقيّة ، والحجناء بنت نصيب ، وثمامة بنت عبد الله بن سوار ، وحفصة الغرناطية ، و . . .

وفي موسوعة (عالم النساء في عالمي العرب والإسلام) لعمر رضا

---

(١) بتصرف واختصار من كتاب تاريخ الأدب العربي ـ العصر المملوكي ـ للدكتور عمر موسىٰ باشا : ٤٣٧ـ٤٥١ .

كحالة ، تجد الكثير الكثير من تراجم النساء اللاتي برزن في هذا الميدان ، ومنهن مثلاً :

الزباء بنت عمير بن المورِّق ، وزبالة بنت عتيبة بن مرداس ، والزرقاء بنت عدي الكوفية ، وابنة ابن السكان ، وسلمىٰ بنت عميس ، وسلمىٰ بنت القراطيسي ، وصفية بنت عبد الله الربيّ ، وعاصية البولانية ، و . . .

ولننقل بعض ما جمعه صاحب هذه الموسوعة ، ومثال ذلك حياة السيدة عائشة رضي الله عنها ، والذي يهمنا هو الجانب الأدبي والبلاغي ونحوه ، ويقول في ذلك :

(كبيرة محدثات عصرها ونابغته في الذكاء والفصاحة والبلاغة ، ولدت بمكة في السنة الثامنة قبل الهجرة) .

(وكانت حاملة لواء العلم والعرفان في عصرها ونبراساً منيراً يضيء علىٰ هل العمل وطلابه ، وكانت تأتيها مشيخة محمد ﷺ يسألونها عن عويص العلم ومشكله فتجيبهم جواباً مشبعاً بروح التروي والتحقيق مما لا يتسنىٰ إلا لمن بلغ في العلم مقاماً علياً) .

(وقال محمد بن عمر : ربما روت عائشة رضي الله عنها القصيدة ستين بيتاً والمائة بيت) .

(وقال موسىٰ بن طلحة : ما رأيت أفصح من عائشة ، وقال معاوية بن أبي سفيان : والله ما رأيت خطيباً قط أبلغ ولا أفصح من عائشة ، وقال الأحنف بن قيس : سمعت خطبة أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والخلفاء هلم جراً إلىٰ يومي هذا ، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه في عائشة) .

وكانت تقول : علموا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .

وقالت ذات يوم : رحم الله لبيداً كان يقول :

قـض اللبـانـة لا أبـالـك واذهـب والحـق أسـرتـك الكـرام الغيـب
ذهب الذي يعاش في أكنافهم وبقيت في خلفٍ كجلد الأجرب

فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ ثم قالت : إني لأروي ألف بيتٍ له ، وإنه أقل ما أروي لغيره!! .

(وسمعها النبي ﷺ وهي تنشد شعر زهير بن حباب :

ارفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه يـومـاً فتـدركـه عـواقـب مـا جنىٰ
يجزيك أو يثني عليك فإن من أثنىٰ عليك بما فعلت كمن جزىٰ

فقـال النبـي ﷺ : « صـدق يـا عـائشـة لا شكـر الله مـن لا يشكـر الناس »[1] .

* تلكم طائفة من القصص التي تتحدث عن أن المرأة قد برزت في ميادين الشعر والفصاحة والخطابة والوعظ والرسائل و . . .

وفي أمهات الكتب آلاف القصص في هذا المجال ، وكلها تؤكد أن النساء شقائق الرجال ، لا ولم تحجب النساء عن هذه المجالس ، بل كما رأينا أن بعضهن كن يتولين الحكم بين فطاحل الرجال الشعراء ، وكنّ يقلن لهذا الشاعر أو الأديب أخطأت في قولك كذا ، والصحيح هو أن تقول كذا!!

فهل بعد هذا يخرج علينا من يردد كالببغاء ليقول : إن الإسلام ظلم المرأة وأهانها ، ونظر إليها نظرة دونية ؟!

* * *

(١) أعلام النساء في دولتي العرب والإسلام ، مقتطفات من الجزء الثالث : ٩-١٣١ .